

حسن عبد الله الخلف⁽¹⁾ | Hasan Abdullah Alkhalaf

سدّ الفرات في المتخيل الروائي السوري المغمورون بين التنمية القسرية وإعادة تشكيل المجتمع

The Euphrates Dam in the Syrian Novelistic Imagination

The Inundated Communities between Forced Development and Social Reconfiguration

ملخص

تهدف الدراسة إلى سدّ فجوة بحثية تتعلق بالنصوص الروائية التي تناولت منطقة سدّ الفرات، قبل بنائه وبعده، وتوسّع إلى تحليل الروايات التي تطرّقت إلى قضية المغمورين، ورؤية السلطة حول ذلك. وتبيّن الدراسة مدى قدرة هذه الروايات على رصد التغيرات الاجتماعية التي شهدتها المنطقة، نتيجة لبناء السدّ، وتركز على تأثير عملية الترحيل التي فرضتها مياه السدّ في سكان منطقة الفرات، بعد أن أغرقت أراضيهم الزراعية ومنازلهم، ما أدى إلى ظهور مصطلح "المغمورون"، بوصفه تسمية اجتماعية جديدة، لتحل تدريجيًا محل الانتماءات المحلية والعشائرية في توصيف الجماعة المتضررة. وتهدف الدراسة إلى قراءة ثمانية نصوص روائية سورية وتحليلها، وتتناول موضوع الفرات وسكانه قبل بناء السد وبعده، بالاعتماد على منهج واقعي يساعد في تزويدنا بالأدوات التي تمكننا من فهم كيفية تناول هذه الروايات موضوع بناء السدّ وتأثيره في المنطقة وسكانها.

كلمات مفتاحية

سد الفرات، الرواية السورية، التهجير القسري، المغمورون، المتخيل الروائي، الذاكرة المكانية

(1) صحفي وباحث وكاتب سوري.

alkhalafhasan1976@gmail.com

Abstract

This study aims to fill a research gap related to novels dealing with the Euphrates Dam region before and after its construction. The study seeks to analyze novels that address the issue of the inundated communities (al-Maghmuroon) and the authorities' perspective on this issue, as well as the extent to which these novels reflect the social changes that occurred in the region due to the dam's construction. It focuses on the impact of the displacement process caused by the dam's waters on the inhabitants of the Euphrates region after their agricultural lands and homes were submerged, giving rise to the term "al-Maghmuroon" as a label for them instead of their previous tribal identities. The study aims to read and analyze seven Syrian novels that address the Euphrates region and its inhabitants before and after the dam's construction, relying on the realist approach. This approach is considered best suited to providing the tools necessary to understand how these novels address the issue of the dam's construction and its impact on the region and its inhabitants.

Keywords

Euphrates Dam, Syrian novels *al-Maghmuroon*, novelistic imagination, forced displacement, spatial memory

مقدمة

تسعى الدراسة إلى مقارنة النصوص الروائية، عبر تحليلها وتتبع أهم ثيماتها ومحاورها، وإبراز الجوانب التي اهتمت بها، من خلال الاستعانة بالمنهج الواقعي، لأنه الأقدر تمكيننا من رؤية الكيفية التي تناولت بها الروايات موضوع بناء السد. تنطلق الدراسة من مفهوم المتخيل الروائي بوصفه إعادة بناء فنية للواقع، لا نقله حرفيًا، وتستفيد من مفاهيم التنمية القسرية في تفسير التحولات الاجتماعية الناتجة عن المشروعات الكبرى، ومفهوم المغمرين، بوصفه توصيفًا اجتماعيًا للجماعات التي اقتلعت من مجالها المكاني بسبب الغمر، فضلًا عن مفهوم الذاكرة المكانية في تحليل علاقة الإنسان بالمكان المفقود وتمثلاته في النصوص الروائية، ولا سيما أن كُتّاب الروايات التي تتبنى خطاب السلطة كانوا من ذوي التوجه اليساري، الأمر الذي يُسوّج هذا النوع من التناول النقدي. تنظر الدراسة إلى النص الروائي في دلالته الثنائية، وهي المضمون والشكل، وتحاول سبر مدى دقة موضوع الفرات بالنسبة إلى واقعه الاجتماعي الروائي. لقد توجّه جانب من الأدب نحو الريف، وجعل منه مادته المرجعية الأساسية، وأخذت الرواية الريفية تحتل مكانة ضمن أشكال الرواية، فتأتي الرواية الريفية لتذكرنا بهذا التفرد الذي فقدناه، وتعيد رسم ملحمة حياة الفلاح السوري واغترابه ومعاناته والتحولات التي طرأت عليه. فقد حاولت هذه الروايات أن "تستوعب الواقع الذي يشكل مرجعيتها، استيعابًا معرفيًا وجماليًا، بما يتمثل فيه هذا الواقع من مكان وزمان وإنسان، واختيار الفضاء الروائي، في الرواية الريفية، يتمثل في مكان مفتوح واسع الأطراف، واختيار هذا الفضاء يرتبط بأزمة روائية متعددة ومختلفة، وبمستويات سردية تختلف تبعًا لأنماط الزمن الموجودة في رحم الرواية. إنها مستويات الواقع المعالج، بما يرتبط به من علاقة باللغة، وعلاقة بالمعرفة، وعلاقة بالخيال"⁽²⁾.

تعتمد الدراسة على ثمانية نصوص سردية، وهي تمثل أبرز الأعمال التي تناولت تجربة سد الفرات وتحولاتها الاجتماعية والثقافية: التحول الكبير، النهر، أن له أن ينصاع، المدينة الأخرى، المغمورون، برج لينا، بيلان، قارب عشتار. وقد اختيرت النصوص لأنها تمثل اتجاهات سردية متعددة في مقارنة المشروع، فمنها نصوص احتفت بالسد

سوّغت السلطة (في عهد نظام الأسد الأب البائد) تشييد سدّ الفرات في مدينة الطبقة (الثورة)، بوصفه عملاً وطنيًا تاريخيًا، وحاجةً اقتصاديةً ملحّةً أولًا. غير أن التبعات والتداعيات، التي خلفها بناء السدّ على الجماعة البشرية المستقرة منذ آلاف السنين على ضفاف النهر، كانت مؤلمة، وشأنها في ذلك شأن الفيضانات السنوية التي كان يتعرّض لها الفلاحون على جانبي النهر، حيث أدّت رغبة السلطة في توظيف السد لأغراض سياسية إلى تدمير المنطقة، من خلال تفكيك بنية اجتماعية كانت متماسكة بقوة الروابط العشائرية، والعمل على إفقار السكان وتهجيرهم قسرًا. فلم يُترك لهم خيار، سوى الهجرة إلى محافظة الحسكة، من دون أن يُمنحوا أي تعويض. على الرغم من تعدد الدراسات التي تناولت الرواية السورية أو روايات الفرات، فإنها انصرفت غالبًا إلى تحليل نصوص منفردة أو جوانب فنية واجتماعية متفرقة، ولم تتناول المدونة الروائية المتعلقة بسد الفرات، بوصفها نسقًا سرديًا متكاملًا يكشف تمثلات التنمية القسرية وتحولات المجتمع الفراتي. من هنا، تسعى الدراسة إلى تقديم قراءة مقارنة لثمانية نصوص سردية في إطار تحليلي واحد. وتتمثل مشكلة الدراسة في تبين تمثلات مشروع سد الفرات في الرواية السورية، بين نصوص احتفت به بوصفه مشروعًا للتنمية، وأخرى ركزت على آثاره الاجتماعية والإنسانية، ما يثير التساؤل حول الكيفية التي أعاد بها المتخيل الروائي بناء هذا الحدث وتحويله إلى خطاب سردي يعكس تحولات المكان والهوية والمجتمع. تحاول الدراسة الإجابة عن سؤال مركزي: هل استطاعت "روايات الفرات" أن تنقل إلى القارئ صورة الحياة على جانبي النهر، ضمن مرحلتين، وهما ما قبل بناء السدّ وبعده؟ ويتفرع عن السؤال مجموعة من الأسئلة: ما الدوافع وراء كتابة "روايات الفرات"؟ كيف عبّرت الروايات عن النشاط الاجتماعي والعادات والتقاليد في تلك المنطقة؟ كيف صوّرت استغلال الإقطاع للفلاحين من جهة، واستغلال السلطة للمغمورين من جهة ثانية؟ هل تمكّنت الروايات من رصد التغيرات الاجتماعية ذات الصلة؟ ما الآثار الاجتماعية التي تركتها تجربة الغمر في حياة الناس في منطقة الفرات، سواء أكانوا من الذين هُجّروا إلى الحسكة أم الذين أثروا البقاء؟

(2) محمد حسن عبد الله، الريف في الرواية العربية، عالم المعرفة (143) (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989)، ص 62.

المعنويات"⁽⁴⁾. من جهة أخرى، يمكننا القول إن هذه الروايات كُتبت بتكليف من السلطة، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، من مثل روايات النهر⁽⁵⁾ والتحول الكبير⁽⁶⁾ وأن له أن ينصاع⁽⁷⁾ والمدينة الأخرى⁽⁸⁾ والمغمورون⁽⁹⁾. أو بدافع ذاتي من أبناء الغمر الذين شعروا بمأساتهم ولحقهم الحيف، من مثل روايات برج لينا⁽¹⁰⁾ وبيلان⁽¹¹⁾ وقارب عشتار⁽¹²⁾. وتهتم الدراسة بهذه النصوص، بوصفها نماذج.

أولاً. تشكّل سردية السدّ في الرواية السورية

في سياق سد الفرات وحياة السكان في جوار نهر الفرات، أُنجِزت العديد من الأعمال الروائية في السبعينيات والنصف الأول من الثمانينيات من القرن الماضي، وتبعها عملان: الأول في التسعينيات، والثاني في بداية الثورة السورية، وهي الروايات التي أطلق عليها سمر روجي الفيصل محققاً وصف "روايات الفرات"⁽¹³⁾. كان الفيصل قد قدّم دراستين، تناول فيها روايات النهر والتحول الكبير وأن له أن ينصاع والمغمورون. أما الروايات برج لينا والمدينة الأخرى للذهبي والنهر سلطان للعجيلي وبيلان ل موسى رحوم عباس، فلم تُدرس. لقد اشغلت السردية الرسمية على هاجس وحيد تمثل في تصوير قسوة الحياة التي كان فلاحو القرى المشاطئة لنهر الفرات يكابدونها، بسبب فيضان النهر كلّ عام، مضاعفاً إليها استغلال الإقطاع لهم ونهب جهدهم، ومتاعب مجتمع البداوة، ما تجلّى في روايات التحول الكبير والنهر وأن له أن ينصاع. لذلك، نستطيع وصف الروايات

بوصفه مشروعاً للتنمية والتحديث، ونصوص ركزت على آثاره الاجتماعية والإنسانية، ومنها أعمال قدمت رؤية أكثر تركيباً، فهي تجمع بين الاعتراف بأهميته الاقتصادية والنقد لسياسات الغمر وإعادة التوطين. لذلك، تتعامل الدراسة مع هذه الأعمال بوصفها مدونة سردية متعددة الأصوات، لا بوصفها ثنائية جامدة بين خطاب رسمي وخطاب مضاد، بل باعتبارها طيفاً من المواقف السردية التي تعكس اختلاف المرجعيات الفكرية والجمالية للكتاب.

ليس مستغرباً أن توجه السلطة آنذاك في سورية عدداً من الروائيين، لكتابة سيرة سدّ الفرات، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. فقد وجهت عدداً منهم لكتابة شيء من سيرة حرب تشرين، بين كل من سورية ومصر من جهة، وإسرائيل من جهة أخرى. ويُقصد بالسلطة هنا اتحاد الكتاب العرب ووزارة الثقافة. من تلك الروايات، رواية الجبل لحنا مينة التي صدرت في عمل مشترك مع نجاح العطار، غير أن حنا مينة عاد إليها (الجبل) وطورها ونشرها مستقلة تحت عنوان المرصد، ورواية أزاهير تشرين المدماة لعبد السلام العجيلي، ورواية دعوة إلى القنيطرة لكوليت خوري، ورواية يهطل المطر في تشرين لعبد الرحيم الخطيب، ورواية دمشق الجميلة لأحمد يوسف داود⁽³⁾. في الطرف الآخر، كتب نبيل سليمان رواية جرماتي أو ملف البلاد التي سوف تعيش بعد الحرب، التي فصل بسببها من الاتحاد من عام 1977 حتى عام 1983، ورواية المسلة، وقد ظلنا ممنوعتين في سورية طيلة عقدين. كذلك، كتب خيرى الذهبي رواية من دمشق إلى حيفا.

في السياق ذاته، كتب صالح الرزوق: "بإشارة غير مسبقة تعارض كلّ أدبيات حرب أكتوبر [...] يصف [الذهبي] كوكبة المقاتلين السوريين أنهم كانوا طابوراً من العميان، ولا يوجد في الذهن نعوت قاسية من هذا النوع قللت من مؤهلات المقاتل السوري، إلا في عمليّن لنبيل سليمان، وهما (جرماتي والمسلة)، وقد انفرد الثنائي (الذهبي- سليمان) بهذه اللغة الهجومية، وخالفها بها أعمالاً خفيفة، مثل المرصد لحنا مينة وأزاهير تشرين المدماة للعجيلي، مع أنها روايات هزيلة ودعائية، والغاية منها رفع

(4) نبيل سليمان، "ماذا تبقى من روايات حرب أكتوبر 1973 بعد نصف قرن؟"، إنديبندنت عربي (5 تشرين الأول/ أكتوبر 2023).

(5) جان الكسان، النهر (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1979).

(6) محمد إبراهيم العلي، التحول الكبير (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1978).

(7) فارس زرزور، أن له أن ينصاع (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1980).

(8) خيرى الذهبي، المدينة الأخرى (دمشق: وزارة الثقافة، 1985).

(9) عبد السلام العجيلي، المغمورون (بيروت: دار الشرق، 1979).

(10) تركي محمد رمضان، برج لينا (دمشق: وزارة الثقافة، 2006).

(11) موسى رحوم عباس، بيلان (بيروت: دار بيسان، 2011).

(12) فوزية المرعي، قارب عشتار (دمشق: دار الطليعة الجديدة، 2007).

(13) سمر روجي الفيصل، "تجربة الفرات في الرواية السورية"، المعرفة، العدد 219 (دمشق: وزارة الثقافة، 1980)، ص 110.

(3) سمر روجي الفيصل، ملامح في الرواية السورية (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1981)، ص 391.

خلال قصة الحُب بين (ندى) القادمة من دمشق و (عثمان) الفلاح "الجالى من عشيرته". وتطرح رواية برج لنا المسألة من منطق مختلف، فهي تشير إلى الخيف الذي وقع على البيئة الاجتماعية من تدمير ممنهج لنسيجها، وقد نُقل السكّان من أرضهم، التي كانت حيزاً لذكريات طفولتهم، إلى منطقة بعيدة، في حين جُلب أناس آخرون للعمل في السدّ والمشروعات الزراعية التي أقيمت بعد ذلك (مزارع الدولة)، ما دمر البيئة الاجتماعية. تمثل الرواية ذلك التحول، حينما يتحوّل فيها الطقس اليومي لوالد البطل، الذي يأخذ فرسه الأصيلة لتسرب من نهر الفرات في الماضي، إلى تدجينها لتصبح حصاناً لبائع جوال، بعد أن تغيرت البيئة والطقوس التي كانت تجري فيها.

تُعدّ رواية بيلان آخر عمل صوّر مأساة المغمورين، وقد وصف كاتبها هذه المرحلة بطريقة واقعية تعبّر عن الظلم الذي عايشه أهالي القرى، وكيف تعاملت معهم الدولة، بالوعود الكاذبة ومن ثم التخلي عن مشاريعها وترك الأهالي واقتلاعهم من جذورهم. تمثل هذه الروايات تجربة اقتلاع مجتمع محلي واجه مشروعاً مركزياً واسع النطاق، ما تجاوز قدرته على مقاومة التحولات التي فرضها، فغدا فقدان المكان مدخلاً إلى فقدان شبكة العلاقات الاجتماعية والذاكرة الجمعية. من ثم، لم يعد الغمر حدثاً جغرافياً فحسب، بل تحول داخل المتخيل الروائي إلى رمز لانقطاع الاستمرارية التاريخية بين الإنسان وبيئته. ويكشف تحليل المدونة الروائية عن طيف من المواقف السردية تجاه مشروع سد الفرات، ما يبدأ بنصوص تحتفي به بوصفه مشروعاً للتنمية والتحديث، ويمر بروايات تجمع بين الاعتراف بأهميته الاقتصادية والنقد لآثاره الاجتماعية، وينتهي بنصوص تركز على تجربة الغمر والتهجير وفقدان المكان. يكشف هذا التباين أن المدونة الروائية المتعلقة بسد الفرات لا تنقسم إلى ثنائية جامدة بين التأييد والرفض، بل تقدم طيفاً متدرجاً من المواقف السردية، ما يراوح بين الاحتفاء بالمشروع بوصفه إنجازاً تنموياً، والنقد لآثاره الاجتماعية والثقافية، وصولاً إلى النصوص التي سعت إلى التوفيق بين البعدين الاقتصادي والإنساني. من ثم، أصبحت الرواية وسيطاً أدبياً لإعادة بناء الذاكرة الجمعية، وتمثيل التحولات التي شهدتها المجتمع الفراتي في ضوء

بأنها تمثل "روايات أيديولوجية" بامتياز، لأنها تدور حول البطل الإيجابي وتتغنى بمزايا العامل والفلاح البطولية، وتبشّر بحتمية سقوط البورجوازيات الصغيرة والإقطاع ومشخة القبيلة، وقد ابتعدت من جوهر الكتابة الروائية، بما هي فعل خلق وفضح موجود بذاته⁽¹⁴⁾.

في مقابل السردية الرسمية، يقف الدارس على الروايات المغمورون وبرج لنا وبيلان، وقد نجت من الوقوع في شرك المباشرة وتمجيد ما أنجزه مشروع النهر من تحولات في المستوى الاجتماعي-الاقتصادي، وتصدّت للحديث عما ألحقته قرارات السلطة من ضرر طال الفلاحين الذين شملهم الغمر في السنوات التالية لبناء السدّ. هذه الروايات كتبها أبناء منطقة الفرات، بخلاف كتاب الروايات التي تبنت السردية الرسمية. من جانب آخر، ظهرت روايات مجدّت بناء سد الفرات، كرواية أن له أن ينصاع لفارس زرزور الذي بناها على منطلقات فكرية للنظرية الاشتراكية، منوهاً بما حققه السوريون في تغيير البيئة الجغرافية والاجتماعية في المنطقة التي بُني فيها السدّ. ويصنّف الناقدان نبيل سليمان وبوعلي ياسين، في كتابهما الأدب والأيديولوجيا في سورية، زرزور بأنه أحد رواد مذهب "الواقعية الاشتراكية"، وقد تميّزت كتاباته بتبنيها قضايا الكادحين، وإبراز هوية الانتماء الطبقي، والتبشير بالأمل المعقود على همم الشعوب التي تصنع انتصاراتها⁽¹⁵⁾.

تخلّصت رواية المغمورون "من الوقوع في شرك المباشرة، وتمجيد ما أنجزه مشروع النهر من تحولات [في] المستوى الاجتماعي-الاقتصادي، بل إنها العمل الروائي الوحيد الذي تصدّى للحديث عما ألحقته قرارات السلطة من أذى، بحق الفلاحين الذين طالهم مشروع الغمر، في السنوات التالية لبناء السدّ، لتقف [أي المغمورون] إلى جانب الجماعة، وتتبنى قضية نزوحها، أو إرغامها على النزوح الذي يؤكد ما تواتر في نتاج العجيلي، [على الرغم من] أنها وقعت في رومانسية لا طائل من ورائها"⁽¹⁶⁾، من

(14) نضال الصالح، المغامرة الثانية في الرواية العربية: دراسات في الرواية العربية (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2000) ص 15.

(15) بوعلي ياسين ونبيل سليمان، الأدب والأيديولوجيا في سورية، ط2 (دمشق: دار الحوار، 1987)، ص 34.

(16) نضال الصالح، "التجربة الروائية في أدب عبد السلام العجيلي: المغمورون نموذجاً"، عالم الفكر، مج 28 العدد 4 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2000).

تجربة الغمر وإعادة التوطين.

وقت يكون الفرات فيه قد أتى على كل شيء، وبدأت مآسيه تتكشف للعيان.

ثانيًا. سلطان النهر

جدلية الإنسان والطبيعة

تؤكد روايات أن أبناء منطقة حوض الفرات تصدّوا لظلم الطبيعة والإنسان، في محاولات التصدي للفيضان، بما يشبه سيزيف ومعاناته المستمرة مع الصخرة، "فالسّدات الترابية هي الحل الذي يستطيعون ممارسته. ومع يقينهم الدائم بأن [بناءها] لا ينفع أمام جموح النهر، فإنهم لا يكوّنون عن [بنائها]. إن السدة الترابية هي المجاهدة الوحيدة التي يقومون بها في وجه فيضان النهر"⁽¹⁷⁾. إنها صورة تجسد التعاون في مجتمع منطقة الفرات، فهذه السدة تحتاج إلى تعاون الناس جميعًا في أثناء البناء، وهذا الاحتفال الطقسي يتم طواعيةً. وعلى الرغم من يقين المشاركين كلهم بأن عملهم يذهب هباءً، فإنهم يعملون بجِد وإخلاص.

يتمثل الظلم بالفيضان السنوي لنهر الفرات، والمآسي التي يخلّفها، فهو يطال المنازل والناس والأرض والمواشي، ويزيل كل ما يعترض طريقه. الظلم واقع من قبل الفرات، وهو يتجدد سنويًا، على الرغم من أن له وجهًا آخر، وهو تقديم مجموعة من الفوائد المادية لسكان المنطقة. صحيح أن الإنسان يستغل الفيضان نفسه، كما في رواية النهر، ويحوّله إلى صالحه، أو يعده فرصة جديدة سانحة لمزيد من الاستغلال، "إلا أن الأمر الذي تؤكد عليه روايات الفرات هو جموح النهر وسلطانه على أبناء المنطقة، ومآسيه المتكررة، ومساهمته في تثبيت الفقر، وفي نشوب المنازعات بين الأهالي، حين يجعل جزءًا من أرض هذا داخله في أرض ذاك"⁽¹⁸⁾ إن مرتكزات ظلم الطبيعة غير مقصورة على فيضان النهر والتصدي له، فالدولة أيضًا ساهمت في هذا الظلم، والروايات تصور إهمالها، ولا سيما في أيام الفيضان. في السياق ذاته، تلجأ رواية التحول الكبير إلى السخرية من رجال الدرك، حين يستنفرون صباح الفيضان لإبلاغ الأهالي عن وصول برقية تحذر من الفيضان. واستنفارهم يتم في

في قصة النهر سلطان للعجيلي (من مجموعة الخائن)⁽¹⁹⁾، تظهر صورة الفرات غاشمًا ظالمًا، وكأنه سلطان جائر يتحكم في شؤون رعيته، من دون أن تنال من جبروته وعظمته مصائب الدهر ونوائبه، ف (مبروك)، في القصة، رجلٌ في الثمانين من العمر، وقد فقد ابنه الوحيد في فيضان النهر، قبل بدء تنفيذ السد بثلاثين عامًا. يقدم الكاتب صورة من المواجهة. فمبروك، وهو الشخصية الوحيدة في القصة، يعيش في إحدى القرى التي تُجاور النهر بجانب مدينة الرقة، وفي ذلك الزمن الذي كانت فيه مياه فيضان الربيع تغمر الأراضي الزراعية وتقتل الناس والمواشي، ولهذا أطلقوا عليه وصف "النهر سلطان". شعور بالضعف وعدم القدرة على فعل أي شيء تجاه الطبيعة التي يمثلها النهر في فيضانه الرهيب، ما يجعلهم يحاولون تعزية أنفسهم عبر الاعتراف بقوّته، ومنحه الصفة التي تماثله مع السلطة ويمثلها الاسم. غير أن (مبروك) يخسر ابنه الوحيد (رمضان)، ولا يملك أن يفعل شيئًا، سوى انتظار أمل كامن في قدرة الإنسان، وبعلمه وإمكاناته، وفي الحدّ من قوة عناصر الطبيعة التدميرية. بفضل المصادفة يشتغل مبروك العجوز حارسًا لمعسكر المهندسين الذي يضعون المخطّطات لبناء سدٍّ يمنع النهر من الفيضان، وسوف يموت راضيًا، لظنّه أن السد سيكون سورًا طويلًا عربيًا ترتطم وراءه أمواج الفرات، فلا يعود النهر سلطانًا بعد ذلك.

ترصد رواية المغمورون الحياة في منطقة الفرات، في المرحلة التي سبقت بناء السد، حيث كان الناس يعيشون حياةً بدوية ويتنقلون بحثًا عن موارد الماء والكأ، وقسم آخر منهم يعيش حياةً نصف حضرية، ففي الشتاء يسكنون في بيوتهم في القرى أو في الرقة التي كانت بلدة صغيرة، وفي الربيع يخرجون بأغنابهم إلى البادية، "في وقتٍ كانت في الزراعة مقتصرة على الأراضي القريبة من الفرات الذي يشق دربه متعرجًا في تلك البادية. هذا ما يتحدث عنه جابر المبروك (والد عثمان) مصورًا شظف العيش وقسوته، حيث كان الإنسان مضطّرًا للقتل أحيانًا، والدخول في منازعات

(17) الكسان، ص 29.

(18) الفيصل، ص 112.

(19) عبد السلام العجيلي، النهر سلطان (مجموعة الخائن) (بيروت: دار الطليعة، 1960).

ثمانين بالمئة من المحصول. تصوره الرواية مستثمرًا نفوذه الاجتماعي والاقتصادي لإخضاع الفلاحين وإدامة علاقات التبعية. في رواية التحول الكبير، تختلف صورة الشيخ (حمد) رئيس العشيرة عن صورة الشيخ (زرقان) في الشكل فحسب، ولكنها في الحقيقة جوهر واحد، وإن كانت الصورة الثانية أقل وطأة وإيلامًا على الناس، تبعًا للرباط العشائري القوي. "إن الروايات تؤكد على بنيتين لمجتمع حوض الفرات في مرحلة ما قبل السد، هما البنية الزراعية ومجتمع القرية والبنية الرعوية والعشيرة في بدايات استقرارها واعتمادها الرئيسي على الرعي. بمعنى أنها تعرض المرحلة الأولى من مجتمع حوض الفرات (البداوة) والمرحلة الثانية (الزراعة)" (22). الروايتان تكشفان تساهلاً حادًا عن استمرار الروابط العشائرية القابلة للتفكك تحت ضغط التحولات الاقتصادية والاجتماعية. ف(أبو محمود) في رواية النهر يثور على الشيخ (زرقان)، ويخبي في الجفر مئة كيس من الحبوب، ويبقى صامدًا إلى أن يمتد أثر ثورته إلى الآخرين الذين كانوا، منذ البداية، يشاركونه سرًا ويصمتون عن مساعدته علانية. لقد أثرت فيهم سنوات السيطرة، فزعت الخوف في نفوسهم، وأثر فيهم الفقر وضعف البنية التعليمية والتنظيم الاجتماعي. لقد غادر المعلم قرية (الصور) ليتحقق بخدمة العلم (التجديد)، فإذا بأخبار الفيضان، الذي تكرر في العام التالي، تؤثر في الجنود الذين يحاربون العدو على الجبهة، لأن كثير منهم من أبناء منطقة الفرات. يلاحظ القارئ أن الراوي قد توقف عند وصف الفيضان، وأثره في عشيرة الشيخ (حمد) توقفًا كافيًا لم يقف مثله بعد ذلك، على الرغم من تكرار ذكر الفيضانات في الأعوام الخمسة التالية على الفيضان الأول.

في رواية التحول الكبير، تُطرح أسئلة عن جدوى بقاء الروابط العشائرية، إن لم تستطع العشيرة المحافظة على أبنائها في وجه الفقر والاستقلال والأزمات الأخرى، بل إن الروابط سرعان ما تتفكك ويجري التفاوض عنها. على هذا النحو، كانت الروايات تصوّر بنية اجتماعية غير مستقرة، ومفككة وأخذة في الحركة، ويدفعها إلى ذلك، في مجتمع ما قبل السد، فقر الناس وتخلفهم. هذان الأمران طبيعيان في مجتمع يكاد يصل فيه الحد إلى فقدان الطعام، وعدم

طويلة الأمد، في سبيل الظفر بقليل من الماء، فجابر المبروك قتل ابن عمه عند البئر، بعد نزاعهما على الدور في سقاية الغنم. وهذا الحادث الذي اضطره إلى ترك دياره والجلأ عنها إلى ديار أخرى، حيث يقيم غريبًا مع زوجته وابنه عثمان بالقرب من منطقة الغمر" (20). صرخة ابن عم (جابر المبروك) ظلت تدوي في أذنه حينًا من الزمن، قبل أن ينتفض الشيخ الجليل، ليصرخ، بعد إدراكه لما حدث، بأن يده التي قتلت ابن عمه لم تكن أكثر من وسيلة سخرتها الطبيعة التي كانت تتحكم في حياتهم وأساليب عيشهم، يقول: "قتل ابن عمي ناس كثيرين غيري. قتله حر ذلك اليوم الجهني، وعطش قطعان الغنم في البادية المقفرة، وماء القليب البعيد الغور المر مذاق، وقتلته الشمس التي كانت تلتهم في وسط السماء فتذيب من الرجال في رؤوسهم وترفع الأيدي في الخناجر حتى تنغرس في الصدور" (21). لقد أدت سطوة الطبيعة وقانونها المدمر واحتباس الماء إلى أن يقتل (جابر المبروك) ابن عمه (خلف)، حينما نازعه دوره في سقاية الغنم على البشر. وقد أفصح عن ذلك الظلم الشديد الذي كانت الطبيعة تمارسه بحق أولئك الفلاحين، معللاً قتله ابن عمه بقوله إن من قتله ليس هو، وإنما الشمس والبئر والعطش والبادية.

ثالثًا. العشيرة والإقطاع في الرواية الفراتية

تصور الروايات منطقة حوض الفرات، قبل بناء السد، بوصفها فضاءً تتداخل فيه سلطة الإقطاع مع سلطة البنية العشائرية، في مجتمع لم يزل آنذاك محتفظًا ببعض سمات الانتقال من البداوة إلى الاستقرار الزراعي. وتصور الروايات الفلاح بوصفه الطرف الأضعف داخل هاتين البنيتين، فقد ظل خاضعًا لسلطة الإقطاع من جهة، ولنموذج البنية العشائرية من جهة أخرى. يصور الراوي الشيخ (زرقان) في رواية النهر يملك تسع قرى، ويستغل خيراتها عن طريق توزيعها على الفلاحين، ليزرعوها ويقدموا له في الموسم

(20) المغيرة الهويدي، "الرؤى الفكرية والفنية في روايات عبد السلام العجيلي"، رسالة ماجستير (جامعة تشرين، 2025)، ص 78.

(21) العجيلي، المغمورون، ص 29.

(22) العلي، المرجع نفسه.

بوصفها عوامل مهدت لظهور فكرة المشروع داخل الخطاب الروائي. (ظلم الطبيعة، الإقطاع، التخلف) على بناء السد، سواء أكان نابعاً من منطقة الفرات أم من العاصمة، معلنةً أن فكرة بناء السد لم تكن واردة، بل كانت نتيجة لازدياد الحركة الشعبية الضاغطة لسكان منطقة الفرات، في حالات الفيضانات المتكررة. في المقابل، صوّرت الروايات المحاولات الرامية إلى تعطيل عملية البناء، وتأخير عمل البعثة الروسية والإساءة إليها عند السكان. وتعكس هذه النصوص السمات العامة للواقعية الاشتراكية التي كانت مؤثرة في جزء من الإنتاج الروائي السوري، خلال تلك المرحلة، إذ يغلب حضور الخطاب الأيديولوجي المباشر، وتبرز الشخصيات بوصفها حوامل لأفكار سياسية واجتماعية، أكثر من كونها شخصيات فردية مستقلة. ما مثلته روايات زرزور والعلي والكسان هو الحضور الواضح للخطاب الحزبي داخل البناء السردي، وهذه أهم شروط الواقعية الاشتراكية، فهي تخاطب العامة من الناس، مفترضةً وعيهم المتواضع. لهذا، نجد تنظيراً مباشراً واضحاً في الرواية: "التزام الحقيقة أمام الجماهير سيكون وسيلة من وسائل تثقيف الجماهير [...] مبدأ الديمقراطية الشعبية الذي أقرته مؤتمرات الحزب سيكون سبيلاً لتنظيم المجتمع الاشتراكي"⁽²⁴⁾.

معرفة أهل المنطقة دور العلم جعلهم يتوقون إليه، كما تصور رواية التحول الكبير، حيث نقل الراعي إلى عامل عادي، ثم إلى عامل فني، وبدأت حياة الناس الاجتماعية تتغير من المنزل الطيني أو بيت الشجر إلى المنزل المبني من الإسمنت (التحول الكبير). ولعل الرواية، حين جعلت (ضيف الله)، وهو الشاعر البدوي العامل الأمي، يسكن خيمة في بداية عمله بمشروع السد، ثم جعلته يسكن منزلاً حديثاً، تريد القول إن سد الفرات نقل البدوي من حالة الانتقال إلى الاستقرار، وجعلته يعتز بعمله، فهذه أشياء "كلّها من آثار سد الفرات الذي يتحوّل فيه الإنسان من مزارع إلى عامل فني، وتتحول الراعية إلى عاملة بالجرافات الهيدروليكية"⁽²⁵⁾. إن هذا التغيير المنتظر للطبيعة، والمرهون ببناء السد، فرض حتماً تغييراً في أنماط المعيشة

توافر أساسيات الحياة، وهو فقر يواكب التخلف، وما يستتبعه من جهل وعدم تنظيم وغياب للوعي. تتحدث رواية النهر عن تحكم رجل الإقطاع الشيخ (زرقان) في كل مفاصل الحياة والمجتمع، فهو يمتلك أكثر من قرية، ويأخذ من الفلاحين ثمانين بالمئة من إنتاجهم، ويتحكم في القضاء، حتى أن ابنه الذي اقترف جريمة قتل تخلص من المهمة ولحقها لشخص آخر. ولهذا نجد رئيس المخفر تابعاً مجروراً للشيخ، ويتلقى الأوامر منه كما لو كان هو قائد الشرطة. تتناول الرواية واقع الناس في ظل الإقطاع وما يعانونه من ظلم وبطش وقهر، ويتحدث أبو محمود عن هذا الأمر: "إنه يريد ثمانين بالمئة من المحصول ضريبة حاصل [...] بأي حق؟ لماذا يطمع في بذاري؟ ألا تكفيه قراه التسع؟ لم يبق إلا أن يشلحنا القصيرة والسروال [...] بأي حق تأخذ القمح، يا حمدان؟"⁽²³⁾. تذهب رواية المغمورون إلى نقد بعض الأعراف الاجتماعية القبلية التي حالت دون حرية الاختيار في الزواج، من خلال قصة عثمان وندي، فقد غلب الانتماء العشائري على الاعتبارات الشخصية. ما بين الفلاحين أنفسهم أيضاً، فقد رفض أهل الفتاة (ندي)، التي راقى لـ (عثمان) وراق لها، زواجهما، لأنه لم يكن من عشيرتهم، ولأنه جال. بهذا المعنى، تكشف الرواية تعدد البنى السلطوية التي تحد من حرية الفرد، فتتمثل في سلطة الطبيعة، وسلطة الأعراف الاجتماعية، ثم سلطة الدولة التي تظهر بوصفها طرفاً يسعى إلى معالجة مشكلات المجتمع، لكنها، وفق تمثيل الرواية، تنتج أشكالاً جديدة من الهيمنة. وهي سلطة الطبيعة وسلطة القيم الاجتماعية-القبلية، اللتان تسلبان الفلاح حقه في حياة كريمة، وسلطة الدولة التي استجار بها الفلاحون لتنصفهم من الطبيعة والمجتمع، فرفعت عنهم ظلمهما وأوقعتهم تحت ظلمها هي ذاتها.

رابعاً. التحديث القسري وإعادة تشكيل المجتمع

تصور الروايات وجود دوافع اجتماعية وسياسية سبقت مشروع السد، وقد تمثلت في الفيضانات المتكررة، وهيمنة الإقطاع، وضعف البنية الاقتصادية والاجتماعية،

(24) المرجع نفسه.

(25) العلي، ص 238.

(23) الكسان، ص 13.

داخل المدونة الروائية المدروسة.

خامساً. الرواية وتوثيق الانتقال الاجتماعي

تكشف المدونة الروائية المتعلقة بسد الفرات أن العلاقة بين التحول الاجتماعي والتحول الاقتصادي تمثل أحد محاورها المركزية، فالنصوص تصور بناء السد بوصفه مشروعاً تجاوز آثاره الهندسية ليصبح عاملاً في إعادة تشكيل أنماط العمل والسكن والعلاقات الاجتماعية. تبني الروايات تصورها للتحول الاجتماعي على ارتباطه الوثيق بالتحول الاقتصادي، بحيث يبدو كلاهما عنصراً مفسراً للآخر داخل البنية السردية، لا نتيجة مستقلة عنه فحسب. ففي رواية التحول الكبير، يؤكد البطل أن لـ "تغير البنية الاقتصادية المجسدة في بناء سد الفرات أهمية كبيرة، غير أنها [تعد] وسيلة لتحقيق التحول الاجتماعي، وليست هدفاً بحد ذاتها. والملاحظ أن المحور الرئيسي قد سار في اتجاهين: اتجاه مرحلة ما قبل السد، واتجاه مرحلة بناء السد وتوقف في المرحلتين كليهما عند الإنسان والطبيعة"⁽²⁸⁾. في مقابل الروايات التي ركزت على التحول الاجتماعي من خلال الشخصيات، تقدم رواية برج لينا منظوراً مختلفاً، فهي تجعل من عملية بناء السد نفسها محوراً للسرد، وتربط بين الحدث الهندسي والتحويلات التي طرأت على المكان والإنسان. من جهة ثانية، يُفرد تركي محمد رمضان في روايته برج لينا، مساحة موازية لما ذكر أنفأ، ليؤرخ من خلال السرد لبناء السد، ومراحل تنفيذه حتى دخوله حيز العمل، وما تلاه من تشييد لمدينة "الثورة". لقد أقام رمضان البناء الفني على مبدأ التناوب بين مشهدين: أولهما عمليات بناء السد الجارية بانتظام، ومن دون توقف. وقد باشر بها الخبراء الروس مع المهندسين والعمال السوريين، والثاني ما يحدث من تغييرات في القرية (جعر)، التي تقع بالقرب من مكان بناء السد. تتحدث الرواية، في أثناء ذلك، عما يدور من علاقات إنسانية بين كل أفراد المجموعة التي تخلقها أوضاع العمل، للعيش في مكان واحد. وتصبح "مدينة بمعايير حديثة، تشبه الأحياء الروسية [...] وبناء السد، وتصور الرواية بناء السد بوصفه حدثاً وطنياً ذا أبعاد اقتصادية واجتماعية

التي تسود منطقة الفرات بعامة، وهذا التغير في أنماط العيش والوسائل فرض تغييراً واضحاً في بنية تلك الطبقة الاجتماعية، "لتزول أعراف وقوانين جائرة فرضتها الطبيعة، وتسود بدلاً منها قوانين وأنظمة جديدة، تكون كفيلة بحماية الفلاحين، والحد من سلطة المجتمع العشائري الذي كان يعلي من شأن القوي، ويعترف بحقوقه كاملة، في وقت تضع فيه حقوق الكثير من المستضعفين"⁽²⁶⁾.

الاحتفاء بالسد في روايات، من مثل التحول الكبير وأن له أن ينصاع، ترك الراوي عاجزاً عن النظر إلى رفع مكانة أخرى لا تنطبق عليها شروط عشيرة الشيخ (حمد)، لأن العشيرة لا تمثل المنطقة بكاملها في شروطها الاجتماعية (كان يقول لنفسه، والسيارة تغادر حوض الفرات باتجاه حلب: "الاشتراكية قادمة لأربب فيها، وسوف تتحقق، مهما كانت الصعاب، ومهما حاولت الإمبريالية والصهيونية وحلفاؤها وضع العراقيل"). وتقدم بعض الروايات قراءة نقدية ترى أن الخطاب المصاحب لمشروع السد حمل أبعاداً أيديولوجية واضحة، ما انعكس في تصوير المشروع بوصفه رمزاً سياسياً إلى جانب كونه مشروعاً تنموياً. لقد أرسى مفاهيم السلطة في عقول الشعب، "وقد أظهر ذلك على لسان مدير مدرسة في قرية الماشي، ويمثلها نائب في مجلس الشعب منذ أربعين عاماً، وكيف أن أقارب هذا النائب قد استحوذوا على الوظائف والمناصب في المنطقة، فالقرية ليست سوى صورة مصغرة عن سورية، حيث نقل عن (خلف الماشي) مدير مدرسة القرية قوله: بعد وفاة القائد العظيم الخالد حافظ الأسد، رحمه الله، عاهدنا الرفيق الدكتور بشار حافظ الأسد على أن تكون الجند الأوفياء المتابعين، بكل همة ونشاط، تعليمنا لأبنائنا التلاميذ في مدارسنا حتى نحقق جيلاً مستقبلياً"⁽²⁷⁾. تكشف هذه النصوص أن التحول الذي أحدثه مشروع السد لا يقدم بوصفه تحولاً اقتصادياً فحسب، بل بوصفه انتقالاً من منظومة اجتماعية إلى أخرى، ومن أنماط تقليدية في العمل والسكن والعلاقات الاجتماعية إلى أنماط جديدة فرضتها عملية التحديث. ويختلف تقييم هذا التحول من رواية إلى أخرى، ما يعكس تعدد المواقف السردية تجاه المشروع

(26) الهويدي، ص 78.

(27) حمدان العكلة، "الهجرات والتحويلات الكبرى في منطقة الجزيرة السورية: دوافعها السياسية وأثارها الاجتماعية"، قلمون، العدد 20-19 (تموز/ يوليو 2022).

(28) العلي، ص.

الذي سقط أخيراً هو آخر الشرفاء؟ يقول بطل العمل المهندس (أدهم) عن المدينة التي بناها: إنها "مدينة جديدة، بشوارع طويلة مستقيمة ورياض أطفال ونواد للعشاق، ومساح للباحثين عن الراحة بعد عناء العمل"⁽³¹⁾. بذلك، تختلف المدينة الأخرى عن الروايات السابقة، حيث تنتقل من تمثيل مشروع السد، بوصفه مشروعاً للتحديث، إلى مساءلة البيروقراطية وآليات السلطة داخل المدينة الجديدة، ما يمنحها خصوصيتها داخل المدونة الروائية. إن الروايات نفسها لا تكتفي لمعاينة ذلك الجور الذي تمارسه الطبيعة بحق الفلاحين فحسب، بل تعان كذلك القيم والأعراف الاجتماعية القبلية الغاشمة، بين الفلاحين أنفسهم أيضاً. يكشف تحليل هذه النصوص أن صورة التحول الاجتماعي ليست واحدة في جميع الروايات، فبعضها يقدم السد بوصفه أداة للتحديث وإعادة بناء المجتمع، في حين يركز بعضها الآخر على الكلفة الاجتماعية لهذا التحول، ولا سيما ما يتعلق بفقدان المكان وتغير العلاقات الاجتماعية. من ثم، لا تقدم المدونة الروائية موقفاً واحداً من المشروع، وإنما طيفاً من الرؤى السردية التي تتفاوت في تفسير آثار التنمية والتحول الاجتماعي.

سادساً. السرد الروائي ونقد السياسات السلطوية

فألحو منطقة الغمر، الذين ألفوا العيش في أحضان حوض الفرات، وانتظروا سنوات وهم يحلمون، كما تصور الروايات، بالجنات التي سوف ينعمون بها، بعد بناء السد، لم يخطر ببالهم يوماً أن السد نفسه سيكون سبباً في تشريدهم. وتقدم الروايات المكان بوصفه أحد العناصر المؤسسة للهوية، بحيث لا ينفصل الإنسان عن أرضه، إلا بوصفه انفصلاً عن تاريخه وذاكرته وشبكة علاقاته الاجتماعية. لذلك، لا تقتصر تجربة الغمر في هذه النصوص على فقدان البيوت والأراضي، وإنما تمتد إلى إعادة تشكيل الذاكرة المكانية للجماعة المحلية. يلاحظ قارئ روايات الفرات، ولا سيما المغمورين والتحول الكبير، أن مشكلة تهجير السكان، وإن بدت، في تمثيل

واسعة، لفوائده الجمّة ومميزاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ليس لأبناء هذه المنطقة فحسب، بل لسورية ككل، وهذا ما تعكسه البنية السردية للرواية، ولا يفوت الكاتب الفرصة، فيؤرخ للتضحيات التي بذلها أبناء سورية، من عمال ومهندسين، والخبراء الروس في سبيل إنجاز هذا المشروع العظيم⁽²⁹⁾.

في جانب آخر من رواية التحول الكبير، يتخذ حضور الخطاب الأيديولوجي صورة أكثر مباشرة، حيث ترتبط الشخصيات بخطاب الجيش الشعبي وشعارات حزب البعث، بما يعكس تأثير الواقعية الاشتراكية في بناء الشخصيات والخطاب الروائي. يتحدث الكاتب على لسان العقيد (محمد)، وهو الكاتب نفسه في الجيش الشعبي، الذي مجّد فكر حزب البعث وشعاراته (الوحدة والحرية والاشتراكية). أما الرواية الوحيدة التي لا تتطرق إلى الغمر، وتتحدث عن البيروقراطية، هي رواية المدينة الأخرى. إنها المدينة الممتدة بين الحلم الأفلاطوني والبقعة التي لا يخطئ حدس القارئ في تحديد موقعها (الثورة)، إلا أن الرواية لم تذكر هذه المدينة بالاسم، ولم توضح معالمها، فبقيت غامضة، وبعيدة من الواقع. وعبر استرجاعات ذهنية يمكننا إضاءة جوانب من الشخصيات والعلاقات الاجتماعية والإنسانية فيها، في أثناء البناء وبعده، فيتعمق بذلك الإحساس بواقعية الحدث وصلابة المكان.

لم ينحت الذهني "هذه الشخصية، وإنما صنعها من مادة الرصاص المذاب، وصّبّها في قالب كتيّم، حتى إذا تكونت أخرجها للناس تمثالاً يفرض عليهم تأدية طقوس رهيبية أمامه. الذهني صاحب دينامية النقد الواقعي في ليل عربية، والتعرية الجريئة للأوضاع السياسية والاجتماعية، والتعرية التحريضية التي تدفع نحو التغيير [إنه يكتفي في رواية المدينة الأخرى] بتعرية ملطفة مهدئة حالت ألوان الواقع، وهي تعرية ممزوجة بأسى طقس مظلّم يفرض، تحت ظل الهيمنة المطلقة للآلهة الجدد، على كل معارض نزيه الخضوع ثم السقوط"⁽³⁰⁾. بسقوط (أدهم الأدهمي) في الرواية تسقط آخر قلاع النزاهة والاستقامة، وهل (أدهم)

(29) رمضان، ص 24.

(30) عبد الفتاح قلعي، "المدينة الأخرى: تأسيس خيري الذهني وطقوس الولادة المطلعة"، المعرفة، العدد 285 (1985).

(31) الذهني، ص 10.

عندما تموت العجوز على سجادة الصلاة، ولا تغادر حواف النهر وببتها الذي عاشت فيه نحو 120 عامًا. يحمل هذا المشهد بعدًا رمزيًا، فالبقاء يتحول في المكان حتى الموت إلى صورة مكثفة لرفض الاقتلاع وفقدان الجذور. وقد "خمن أبو زيد أن العجوز تنسم عطر الأرض في سجودها قبل الرحيل، لكن السجود طال، وبقيت العجوز [في] قبر في جعبر"⁽³⁵⁾. وتذهب رواية المغمورين إلى مسألة إجبار الدولة المغمورين على الانتقال إلى المنطقة الحدودية مع تركيا، فهي لم تتساهل معهم في ذلك، ويقول (عثمان) الموظف في السد: "إنَّ الأمر صدر إلى مديريات التربية، في محافظات البلاد، بأن ترفض قبول أبناء المغمورين في مدارسها، وإلى البلديات ألا تعطي أحدًا من المغمورين رخصة لبناء دار له فيها، ما عدا المحافظة الشرقية، ومن لا يثبت قبوله بالتهجير إلى تلك المحافظة يعتبر متنازلًا عن كلِّ تعويض يستحقه. إن جذورنا ضاربة في هذه الأرض، مثل جذور الأشجار العتيقة، هل سمعت بشجرة تلم جذورها وتضعها على أكتافها وتمشي لكلمات تسمعها؟ كلمات تقال لها وتعرف أنكم تكذبون فيها عليها؟"⁽³⁶⁾.

تصور الرواية أن محاولات الاعتراض لم تنجح في تغيير مسار تنفيذ المشروع، لتنتهي عملية الغمر بانتقال السكان إلى مناطق إعادة التوطين. لقد نُقِدت الخطة وغمرت مياه السد القرى، وأجلى المغمورون إلى المناطق البعيدة، وبدأ الفلاحون مهاجرون إلى المحافظة الشرقية. يقول بطل رواية العجيلي: "نحن محكوم علينا بأن نظل مظلومين. حين رأيت حال قوم هناك، أدركت أن كل ما جرى لهم أنهم هربوا من ظلم إلى آخر". في السياق، يرد في الرواية الحوار الآتي: "ندى: ما اسم البلاد التي قلت إن كتب بنات الجامعات لا تذكرها؟ عثمان: بلاد الواق الواق.. ندى: وهل يسكنها فلاحون كثير، مثل جماعتك المغمورين؟ عثمان: لا بد ولا بد أن تكون لهم مشاكلهم التي تشبه مشاكل المغمورين هنا. الفلاحون [...] في كل أرض الله تظلمهم الطبيعة [...] يظلمهم المجتمع [...] يلجؤون إلى الدولة لتحميمهم من الظلمين فترميمهم بظلم أشد"⁽³⁷⁾.

الروايات، صادمة للسكان، قد واجهت عقبات كثيرة، وعلى رأسها ارتباط الفلاحين بأرضهم. لا تقدم الروايات هذا الارتباط بوصفه علاقة اقتصادية فحسب، بل رابطة ثقافية ووجدانية تشكل جزءًا من الهوية المحلية والذاكرة الجماعية. من هنا يتحول فقدان الأرض إلى فقدان حيز اجتماعي وثقافي كامل. تأسيسًا على ذكرياتهم فيها وجهدهم في إنمائها. يقول أحد أبطال المغمورين: "أنا أوصيت أبنائي أن يحفروا قبوري على شاطئ هذا النهر كي أقدر، حتى بعد الموت، أن أمدّ نظري من وراء التراب إلى مائه"⁽³²⁾. ويكشف هذا الخطاب السردى أن النهر لا يمثل موردًا طبيعيًا فحسب، بل عنصرًا مؤسسًا للهوية الفردية والجماعية، ما يفسر شدة مقاومة الشخصيات لفكرة مغادرة المكان. لا شك في أنَّ أزمة الغمر، التي أصابت السكان من الذين كانوا يقطنون في حوض الفرات، تركت أثرًا نفسيًا عميقًا في نفوسهم، لأنَّها غمرت ذكرياتهم مع أراضيهم ومنازلهم التي ألهمتهم مياه الفرات. إن ما زاد عذابات المغمورين وآلامهم شيء أكثر من سياسة التهجير القسرية التي فرضت عليهم، وأجبرتهم على الرحيل إلى أقصى الجزيرة السورية. في خطاب الشخصيات الروائية، يصل الإحساس بالاقتلاع إلى حد تشبيه تجربتهم بتهجير الفلسطينيين.

يقوله المختار لـ (عثمان)، حين أبدت الحكومة إصرارها على تهجير الفلاحين إلى مناطق بعيدة: "يا عثمان، يا ابن أخي، لا تلم الرجال إذا تمسكوا بالأرض التي تراها وتعرفها. هل ترى بيتي ذاك؟ أخليته أنا منذ عشرة أيام. منذ جاءنا الخبر منكم بأن زيادة في النهر مقبلة [...] وأنا منذ عشرة أيام أرجع إليه عند كل مغيب، أدور في نواحيه. ولولا الحياء لمسحت وجهي على حيطانه وقبّلت تلك الحيطان بشفتي"⁽³³⁾. من الممكن القول إن العجيلي يقدم، في هذا المجال، "ظلال شخصيات، وليس شخصيات من لحم ودم، وشخصيات منجزة على نحو سابق لفعالية الكتابة ومعبرة عن حمولة فكرية أكثر منها تجسيدًا لكيانات واقعية"⁽³⁴⁾. في رواية برج لنا، يصف الراوي لحظة الرحيل ومداهمة مياه السد لقرية جعبر، ويظهر المشهد بدقة عين سينمائي،

(32) العجيلي، المغمورون، ص 135.

(33) المرجع نفسه، ص 204-205.

(34) الصالح، ص 253.

(35) رمضان، ص 250.

(36) العجيلي، المغمورون، ص 180.

(37) المرجع نفسه، ص 185.

في قسوته، مستخفاً بحياتهم ومصائرهم، وكأنه بداية لمشروع يؤسس لطوفان أوسع. فضاء الحدث في الروايات (مريبط/ جعبر) يعود تاريخياً إلى آلاف السنين، حيث الرقعة الجغرافية التي منحت البشرية أول معاني الوجود الإنساني، وأول خبز من القمح والشعير، إذًا هي بوابة سورية إلى العالم، وبوابة العالم إلى سورية، وهذا الشريان بين السوريين والعالم هو من عملت سلطة البعث على خنقه، ومحو وجوده بمستنقع مائي، إمعاناً في محو كل المعاني الحضارية والإنسانية والتاريخية وإرثها عن الوجود. تتعامل الروايات مع هذه الأمكنة بوصفها حوامل للذاكرة المكانية، بحيث يغدو غمرها فقداناً لجزء من الهوية الجماعية، لا تغييراً في الجغرافيا فحسب. وتصور رواية النهر أنماطاً من صور الحياة الاجتماعية، وتسلط الضوء على التحالف بين السلطة الحاكمة وشيوخ القبائل في المنطقة، بهدف إحكام السيطرة على الشعب. يقول رئيس المخفر، في سياق الرواية: "نحن هنا لنكون مع الشيخ وليس مع الفلاحين"، وهي الوسيلة التي استخدمتها السلطة في عملية التهجير. وقد كان لشيوخ القبائل والعشائر دور بارز في إقناع الناس أو الضغط عليهم، للقبول بعملية الانتقال إلى الجزيرة. ومن أسوأ ما قام به النظام البعثي، بل العبيثي، أنه أوهم سكان القرى بأنه يخطط لمشاريع للمناطق المغمورة، وقدم الوعود الكاذبة لسكان القرى، ثم انسحب وتركهم في العراء.

تتحدث رواية بيلان عن التهجير القسري والرحيل، وعن الصلاة الأخيرة في مسجد القرية وخطبة الشيخ يوم الجمعة: "لم يعد خافياً عليكم أن هذه القرية، بما فيها، أيلة إلى الغرق في مياه البحيرة، والناس لا بدّ خارجون إلى الرقة أو الحسكة أو... وهنا ترك الراوي الهجرة مفتوحة إلى المجهول [الأموات] يدفعون مرتين.. الأموات لهم حرمة وحقوق. لذلك علينا عدم تركهم يغرقون، يجب أن ننقذ الأموات قبل الأحياء، فالمسلم مكرّم في حياته ومماته، فاتخذوا ما ترونه محققاً لهذا"⁽³⁹⁾. تتحدث الرواية عن الوعود الكثيرة الكاذبة، من أجل إخضاع السكّان وإسكاتهم عن المطالبة بحقوقهم، مثل وعوده بإنشاء "المشروع الرائد"، لإسكان أهالي بيلان في مزارع نموذجية بديلة. يصور الراوي عي أهالي القرية ككذب النظام البعثي، من خلال تصويره لكيفية تعامل الأهالي مع

هذه الثنائية المجسدة والملموسة في حالة معينة، في هذه الرواية، وهي الغمر بمياه السد، تمثل ظاهرة تاريخية، وهذا ما نلمحه في الجملة الثانية من إهدائه، وكأنها عنوان فرعي لها: [إلى المغمورين]. نلمح هنا ثورية تشير إلى أن المقصودين لا المغمورين بمياه السد فحسب، بل المغمورين في الاجتماع الإنساني طيلة التاريخ. المغمورون بمياه السد، في هذه الرواية، إنما يمثلون حالة تاريخية من حالات لا تنفك مستمرة. هذا ما تشير إليه (نجمة الصبح)، وهي بطلنة رواية فوزية المرعي الوثائقية قارب عشتار، عندما تروي الحوار الذي دار بين الشيخ وأفراد عشيرته القادمين من الجامعة بعد انتهاء الامتحانات، فيسألون عن أهلهم: "هذه أرضنا يا شيخ، والأرض هي العرض، سيصق علينا أجدادنا وهم في قبورهم، إن استسلمنا للقرار. قال (حمود)، وهو أحد أبناء العشيرة: على جثتي أنا وجميع أفراد عائلتي والأغنام والراعي. وأمسك بقبضة من التراب وراح يقرّبها من الشيخ متابعاً: إنني أشم رائحة الهيل من بين ذرات التراب.. هذه أرض أجدادنا من مئات السنين.. معقول أن نستسلم بهذه السهولة، يا شيخ؟ وقد أنهى عبارته بعبارات [..] فصاح به الشيخ مهدئاً، بنبرة ممزوجة بالحزن: الرجال لا يبيكون يا جاسم، بل يبيكون يا شيخ [..] حتى السماء تبكي. إنها الأرض مهدنا [..] الوطن الذي وسدنا الأمان. وافترش الأرض جاهشاً يخمش ترابها، وتدخل الزّمار (أبو عمشة) وقد ظلّ صامتاً طيلة حوار الآخرين مع الشيخ، قائلاً: يا شيخ، هل سيُغيّر النهر الأرض التي حفرتها الأقدام بدبكة الولدة؟ وسحب مزماره المغروس في حزام جلبابه، وراح يعزف عليه بنغمات مؤثرة، وبين نغمة وأخرى يتوقف مردداً بعض البكائيات [بلهجة أهل المنطقة]: يا دار جيت أنشدج.. يا دار دلّيني.. عن ساكني رحلو.. لوين خبريني.. من كثر صبّ الدمع.. ما أوجد بعيني.. أمسى علي المساء.. وما ظنتي يعودون.."⁽³⁸⁾.

سابعاً. الفرات بين الفيضان والسيطرة الأيدولوجية

سدّ الثورة (الفرات) يُطبق الخناق على الشخصيات في الروايات (المغمورون، برج لينا، بيلان)، ويغرقهم

(39) عباس، ص 102.

(38) المرعي، ص 55.

مكائهم وذاكرتهم المكانية، ولم يجد كثير من شخصياتها في إعادة التوطين تحقيقاً للحياة الجديدة التي بشر بها الخطاب الرسمي، ولم يحصلوا على حياة جديدة، كما كان يدعي أهل الحكم آنذاك. وتحاول كتب التاريخ محو ذكرى القرى التي كانت موجودة، وبقيت حكاية هذا المكان، لتبقى أسيرة كتب التربية القومية الاشتراكية البعثية التي تروي حكايته كأحد إنجازات "سورية الحديثة"، وربما ضاعت حكاية تهجير أهالي القرى المغمورة ومعاناتهم، في زحمة حكايات الثورة التي سمي السدّ باسمها، ذلك الاسم الذي رفضه أهل المنطقة، واستمروا في تسميته بـ "سد الطبقة". تستعيد هذه الروايات القرى الغارقة بوصفها فضاءً للذاكرة والهوية، في مقابل خطاب رسمي انشغل بإبراز منجزات المشروع التنموية. ويظهر هذا التباين بوضوح في بعض النصوص التعليمية والإعلامية التي رافقت المشروع. ومن النماذج الدالة على هذا الخطاب كتاب القراءة والنصوص الأدبية للصف السابع، في درس "تاريخ حياة نهر"، ومما جاء فيه: "في الخامس من تموز، دخل نهر الفرات إلى المدرسة الجديدة ليتعلم كيف يقرأ، وكيف يكتب، وكيف يمارس الحب مع الحقول والأشجار بطريقة عصرية، وعلى باب المدرسة، نزع الرئيس حافظ الأسد عن الفرات عباءته الطينية، وقص له شعره الأشعث وأظافره الطويلة [...]، وأعطاه قلماً ودفترًا ودواة حبر أخضر، ليكتب يومياته كنهر متحضر، وأعلن وهو يحول مجرى النهر أن سد الفرات ليس عملاً هندسياً خاصاً بسورية، ولكنه عمل قومي من أعمال التحرير، وهذا الكلام يعني بوضوح أن لفلسطين حصتها من السد السوري"⁽⁴²⁾. بوضوح، يكشف النص حضور اللغة التعبوية في تمثيل مشروع السد داخل الخطاب الرسمي.

تصور الروايات أن إحساس الفلاح بالخذلان لا ينبع من رفض فكرة السد في ذاتها، وإنما من شعوره بأن التحولات التي رافقت المشروع لم تحقق ما كان ينتظره من استقرار وعدالة، ومن ديمومة الظلم الواقع عليه، عبر تلك القرارات غير المتوقعة التي تغيء لتضرب عرض الحائط بأحلامه وأماله العريضة. هذه الهزيمة التي تعرضها لا تعني، بطريقة أو بأخرى، وقوف الفلاح في وجه المصلحة العليا للبلاد، بل تتجلى في إحساسه بالخذلان أمام انكسار

هذا المشروع باستهزاء، عندما كان يتحدث "الرفيق (أحمد)" في الرواية عن المشروع الذي رفضه أهل القرية، وقالوا بأنهم سيموتون في دورهم ولن يصبحوا مغمورين. ثم تصور الرواية المشروع بوصفه وعداً لم يتحقق في نظر شخصياتها، من خلال الترويج له بالأفلام والوسائل الدعائية والوعود الكاذبة والأحلام الوردية.

في المقابل، أهل القرى يرفضون المشروع، ويستنهضون به، ثم تتراجع الدولة وتصرف النظر عنه، حتى إن الرفيق البعثي نفسه يقول: "هل تريد القيادة أن ترمي المواطنين في البحيرة؟"⁽⁴⁰⁾. وتصور الرواية سياسات السلطة الحاكمة حيال أزمة الغمر بأنها تحمل بُعداً سياسياً أيديولوجياً، أو بحسب تعبير شخصية (عثمان) هي "مصلحة الوطن العليا". توحى الرواية بأن قرار التهجير اتخذ في مستويات سياسية مركزية، وهو ما تعكسه صرامة تطبيقه داخل النص. فيه أنها إرادة عليا من رأس هرم السلطة، والدليل على ذلك التطبيق الشديد لقرار التهجير كما تمثله الرواية. ومن ثم، يتضح عزم السلطة على المضي في إنجاز السد، وتهجير من غمرت المياه أراضيه إلى الشريط الحدودي، إضافة إلى تسمية البحيرة التي أقيمت خلف السد بـ "بحيرة الأسد"، الأمر الذي وضّحت رواية أن له أن ينصاع التي أشار كاتبها إلى أن التسمية كانت مفاجئة للعمال والموظفين، بعد أن كانت السلطة تُخبرهم بأنها ستحمل اسماً عظيماً لا مثيل له، فتقول لهم: "سيكون لبحرنا -أو يُحيرتنا إذا أردنا الحقيقة- اسمٌ كبيرٌ، ليس قطينة، أو العتيبة أو الحولة، أو طبريا.. وراح البعض يحزرون: بحيرة الفرات، بحيرة الطبقة، بحيرة الشمس الساطعة [...] تحاول السلطة إضفاء طابع العظمة على البحيرة وسدّها، لتعلن اسمها في حفل الافتتاح، وبأسلوب عاطفي شاعري: بحيرة الأسد.. ستعمر البلد.. تزداد كل يوم.. تملو بلا زبد.."⁽⁴¹⁾.

ثامناً. الدولة المركزية وتفكك المجتمع المحلي

تصور الروايات أن أهالي القرى المغمورة فقدوا

(40) عباس، ص 114.

(41) زرزور، ص 270.

(42) القراءة والنصوص الأدبية (دمشق: وزارة التربية، 2008)، ص 59.

تاسعاً. المكان المفقود وذاكرة المغمورين

صحيح أن السلطة شيدت بعض المزارع في مناطق قريبة من البحيرة، إلا أن أعدادها كانت قليلة، قياساً إلى المجموع العام للمغمورين. لقد كانت الدولة شديدة في عملية الترحيل لمن قررت ترحيلهم، وتصور الروايات عملية التهجير بوصفها اقتلاعاً من المكان، ما ترك أثراً نفسياً واجتماعياً عميقاً في شخصياتهم. في هذا السياق، تصور رواية المغمورون أشكالاً من رفض الأهالي ومقاومتهم لقرار التهجير. يصوّر العجيلي أشكالاً من رفض الأهالي ومقاومتهم للتهجير، وهم يستذكرون أيامهم وأيام أهلهم من قبلهم، ويقول أحدهم: "بيتي بنيته من لبن وحجر الفخار وخشب، على الأرض التي بنى أبي قبلها سيباطه من سوس وغرب.. زوّجت ابني في هذا البيت، وأخرجت جنازة أُمي منه. جذورنا ضاربة في هذه الأرض، مثل جذور الأشجار العتيقة.. هل سمعت بشجرة تلمّ جذورها وتضعها على أكتافها وتمشي!"⁽⁴⁵⁾. يعكس هذا الخطاب ارتباط الشخصيات بذكرياتها المكانية، بوصفها جزءاً من هويتها الجماعية، فهي هوية تتناقلها الأجيال في المنطقة، وهي النسغ الذي يعتاشون عليه. على نحو مباغت لـ (عثمان) ومرافقيه الذين اجتمعوا بكبار المسؤولين في العاصمة، كما تصور الرواية. فثمة قرارات جديدة تقضي بأن لا يسكن هؤلاء الفلاحون في تلك القرى النموذجية، وبأن يُرحّلوا إلى أماكن بعيدة، أي إلى المحافظات الشرقية، وإلى أقصى بقاع تلك المحافظة عند حدود البلاد، من دون أن يقدم أولئك المسؤولون تعليلاً للقرارات. تصور الرواية استمرار تمسك الفلاحين بأراضيهم، على الرغم من تنظيمهم احتجاجات أمام المديرية العامة للمشروع. والتمسك بأراضيهم، على الرغم من تظاهرهم أمام مبنى المديرية العامة للمشروع، للتعبير عن الاستمرار في الرفض.

لقد صوّرت الرواية مشاهد الإجلاء بصورة مؤثرة: "يعود الرجال في هدأة المساء مطأطيء الرؤوس، وقد بدأت مياه النهر تغمر قريتهم. يرون قرص الشمس وهو يُتم انحداره.. ويسمعون عواءً مديداً وعريضاً وحاداً.. عواءً بالمقلوب، كما يقول أهل الوادي. يتوقفون صامتين، يقول

حلمه بأن يعيش في بلاده آمناً من غدر النهر في ثورات غضبه، متنعمًا بخير أرضه التي يزرعها ويعيش من غلالها ويدفن فيها. فالفلاح يرفض تلك القرارات، ويرى أنها لم تراعي فائدته ومصالحته، لأنه جزء من هذا الوطن. لذلك، كان يرى في موقف الدولة انتصاراً لتلك القوى عليه، بعد أن التجأ إليها، وعلّق على مشروعها الكبير غده الموعود، ليرحل إلى تلك البلاد البعيدة، مملوءاً بالحسرة والخيبة. هذا ما يوضحه (عثمان)، في معرض حديثه إلى (ندى) عن واقع الفلاحين بعد تلك القرارات⁽⁴³⁾. كان عثمان جالياً، فأسمى بعد بناء السدّ جميع أهل القرية جالين غرباء أيضاً، والحلم الذي انتظره الفلاح، للخلاص من قوى الطبيعة والعادات والأعراف الاجتماعية، انكسر وسقط أمام القوة التي علّق عليها أمله بأن تنتصر له، ما يجعل الرؤية التي تعرضها الرواية سوداوية. يفرد كاتب رواية بيلان فصلاً مهماً لفعل من الاحتجاج العلني على مياه السد والغمر وفعل السلطة، عندما رفض أهالي (مريبط) وقرى الغمر أن تكون قبور موتاهم تحت مياه البحيرة، ورفضهم الترحيل المفروض عليهم من السلطة، فتصف رفض (أحمد) لقرار رئيس المخفر، وتصور ردّة فعله: "رئيس المخفر سحبه من ثوبه بقوة أطاحت به الأرض، وأمسك بشاربيه، وهو يقول: من لا ينفذ أمر الحكومة ننتف شاربيه"⁽⁴⁴⁾. تنتهي الروايات إلى أن المأساة لا تتمثل في وقوع الظلم وحده، بل في شعور الشخصيات بعجزها عن تغييره، ما يمنح تجربة الغمر والتهجير بعداً إنسانياً يتجاوز الحدث التاريخي، ليصبح سؤالاً عن العدالة والذاكرة والانتماء. إنها تتمثل في شعور الشخصيات بعجزها عن تغييره، ما يمنح تجربة الغمر والتهجير بعداً إنسانياً يتجاوز الحدث التاريخي، ليصبح سؤالاً عن العدالة والذاكرة والانتماء. إن المأساة في الواقع الروائي لا تتمثل في وقوع الظلم وحده، فالمقاومة، إن وجدت، تفتح أفقاً لتغييره. إنها تتمثل في قبوله والاستسلام له، والنظر إليه بوصفه قدراً لا يمكن مقاومته.

(43) العجيلي، المغمورون، ص 237.

(44) عباس، ص 154.

(45) العجيلي، المغمورون، ص 150.

سردية واضحة، ويتراجع حضور تجربة إعادة التوطين والتحويلات اللاحقة، مقارنةً بالتركيز الكبير على لحظة الغمر والرحيل. لقد ولدت الهجرة القسرية آثاراً قاسية، بسبب انتزاع السكان من أراضيهم، بعدما انتزعوا من بيئتهم الاجتماعية التي تقوم على أساس القبيلة وعلاقات القرابة، وجعلوا نموذجاً للشتات، ما أحدث تحولاً عميقاً في مسارهم الاجتماعي. لقد شكلت تجربة الغمر نقطة تحول في الذاكرة المكانية والاجتماعية لسكان المنطقة. وقد حاولت روايات الفرات أن تقارب قضية المغمورين من جوانبها المتعددة، لكن التحويلات الاجتماعية، بعد مرحلة الغمر ومرور نصف قرن ونيف على بداياتها، ما تزال بعيدة من التفاصيل الروائية. على الرغم من تعدد المقاربات الروائية لتجربة الغمر، فإن مرحلة ما بعد إعادة التوطين ما تزال محدودة الحضور داخل المدونة الروائية.

يلاحظ محدودية الدراسات الأدبية والاجتماعية التي تناولت وادي الفرات وتحولاته، ما يفتح المجال أمام مزيد من الدراسات التي تستكمل قراءة هذه التجربة، من زوايا تاريخية واجتماعية وثقافية مختلفة. "على الرغم من التطور التكنولوجي الهائل الذي تخطت حياتنا، وفقاً لأحد الباحثين، وأصبح جزءاً من كياننا وعلاقتنا الإنسانية، ولم يكن مصحوباً بهم معرفي يحفر في التاريخ، ويعيد كتابة أرشيفنا الاجتماعي والسياسي والأدبي، الذي يحتاج إلى تنقيب في أصوله ودوافعه وتياراته وعلائقها السياسية والاجتماعية. إن إرجاع قلة الدراسات الأدبية والتاريخية والاجتماعية حول وادي الفرات إلى التهميش المعتمد، الذي سام أهل الفرات على مدى قرون، [...] يحتاج إلى أبحاث تعيد رسم خريطة الفرات الاجتماعية والثقافية والأدبية"⁽⁴⁶⁾. لقد اهتمت جهات دولية بالمهمشين وحقوقهم، سواء أكان من منظور مصلحة سياسية أم من مبدأ احترام التنوع الثقافي، وقد أكدت الأمم المتحدة، في شرعتها ومنظورها الحقوقي، احترام ذلك. تبرز أهمية هذه المدونة الروائية في أنها حفظت جانباً من الذاكرة الاجتماعية للمغمورين، وأسهمت في توثيق تجربتهم من منظور أدبي، في منطقة حوض الفرات، لم يُمكنوا من رفع أصواتهم للتعبير عن مظلوميتهم، ولم يستمع إليهم أحد، في ظل سلطة البعث

المختار: هذا كلبُ (أيوب الأحمد)، ويرتفع صوت (أيوب) مخاطباً كلبه: وماذا بيدي لك، يا خائب الحظ؟ أنت تعوي، ونحن نعوي ولا من يسمع لنا"⁽⁴⁶⁾. يقوم هذا المشهد على موازنة رمزية بين عواء الكلب وعواء الإنسان، بما يعكس الإحساس بالعجز وفقدان الحيلة. حيوان وإنسان يعويان، ما يعني عجزهما التام. تقدم رواية برج لدينا منظوراً مختلفاً لتجربة الغمر، فهي تشير إلى الحيف الذي وقع على البيئة الاجتماعية من تدمير، وقد نقل السكان من أراضيهم إلى منطقة بعيدة، وتشير الرواية إلى قدوم سكان وعمال جدد ارتبطوا بمشروع السد والمشاريع الزراعية اللاحقة. لقد تمرّد بعض القاطنين على تنفيذ القرار بالترحيل، وخاصة القاطنين بمنطقة (مريبط)، حيث "حزن أهلها على أوابدها التاريخية، أكثر من حزنهم على بيوتهم وأرضهم الزراعية". وحين وصل النبا إلى السلطات، وتُرجم نص التمرد على الخبراء السوفييت، أجاب أحد الخبراء بأنهم سيحاصرون بالماء، وسيخرجون من بيوتهم مستنجدين، كما تهرب الفئران من جحورها"⁽⁴⁷⁾. وحين حوّل مجرى النهر وتفجرت المياه كالسيل الجارف، هرع سكان وادي الفرات يبحثون عن ملاذ، فصعدوا إلى أسطح المنازل هرباً من الغرق، لتنتشلهم طائرات مروحية، مودّعين المكان بالعويل والنحيب.

خاتمة

الرواية السورية وتوثيق مأساة المغمورين

شكلت روايات الفرات مدونة سردية مهمة لرصد التحويلات الاجتماعية، والهجرة منها وإليها، وأبرزت ثنائيات التحول الاجتماعي، والتحول الطبقي، والريف والمدينة، والبدوي والفلاح، والعلم والتقليد، والاستغلال والتحرر. وأقامت نوعاً من الموازنة بين بناء السد والتحول الاجتماعي، وكشفت أن ارتباط وجود الإنسان وحضارته بوجوده، في مناطق قريبة من المياه، يمثل حقيقة تاريخية لا شك فيها. لقد شكّلت هذه المناطق أرضية ثابتة لتلك الحضارات، ولا تتعرض الروايات لمرحلة ما بعد الغمر، ما يكشف عن فجوة

(46) المرجع نفسه، ص 184.

(47) المرعي، ص 57.

(48) إبراهيم الشلي، "مدخل إلى الأدب الفراتي"، قلمون، العدد 20-19 (تموز/ يوليو 2022).

2011.

- عبد الله، محمد حسن. الريف في الرواية العربية. عالم المعرفة (143). الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989.

- العجيلي، عبد السلام. المغمورون. بيروت: دار الشرق، 1979.

- العجيلي، عبد السلام. النهر سلطان (مجموعة الخائن). بيروت: دار الطليعة، 1960.

- العكلة، حمدان. "الهجرات والتحويلات الكبرى في منطقة الجزيرة السورية: دوافعها السياسية وأثارها الاجتماعية". قلمون، العدد 19-20 (تموز/ يوليو 2022).

- العلي، محمد إبراهيم. التحول الكبير. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1978.

- الفيصل، سمر روجي. "تجربة الفرات في الرواية السورية"، المعرفة، العدد 219. دمشق: وزارة الثقافة، 1980.

- الفيصل، سمر روجي. ملامح في الرواية السورية. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1981.

- القراءة والنصوص الأدبية (دمشق: وزارة التربية، 2008).

- قلعي، عبد الفتاح. "المدينة الأخرى: تأسيس خيري الذهبي وطقوس الولادة المطلعة". المعرفة، العدد 285 (1985).

- المرعي، فوزية. قارب عشتار. دمشق: دار الطليعة الجديدة، 2007.

- الهويدي، المغيرة. "الرؤى الفكرية والفنية في روايات عبد السلام العجيلي". رسالة ماجستير (جامعة تشرين، 2025).

- ياسين، بوعلي ونبيل سليمان. الأدب والأيدولوجيا في سورية، ط2. دمشق: دار الحوار، 1987.

(العبث) البائدة. من ثم، تمثل هذه الروايات مصدرًا مهمًا لفهم التحولات الاجتماعية والثقافية التي رافقت مشروع سد الفرات، وتفتح المجال أمام دراسات لاحقة تتناول مرحلة ما بعد الغمر وإعادة التوطين من منظور أدبي واجتماعي، بوصفها مشكلة وطنية، ومسألة تهمة السوريين الساعين لبناء دولة المواطنة والعدالة في المرحلة الانتقالية الراهنة، وبصورة مستدامة لاحقًا.

المراجع

- الكسان، جان. النهر. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1979.

- الذهبي، خيري. المدينة الأخرى. دمشق: وزارة الثقافة، 1985.

- رمضان، محمد تركي. برج لينا. دمشق: وزارة الثقافة، 2006.

- زرزور، فارس. أن له أن ينصاع. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1980.

- سليمان، نبيل. "ماذا تبقى من روايات حرب أكتوبر 1973 بعد نصف قرن؟". إنديبندنت عربي (5 تشرين الأول/ أكتوبر 2023).

- الشبلي، إبراهيم. "مدخل إلى الأدب الفراتي"، قلمون، العدد 19-20 (تموز/ يوليو 2022).

- الصالح، نضال. "التجربة الروائية في أدب عبد السلام العجيلي: المغمورون نموذجًا". عالم الفكر، مج 28 العدد 4. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2000.

- الصالح، نضال. المغامرة الثانية في الرواية العربية: دراسات في الرواية العربية. دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 2000.

- عباس، موسى رحوم. بيلان. بيروت: دار بيسان،